المحاضرة الثالثة: الشعرية والنقد الأدبي القديم.

مدخل:

لقد أثارت الشّعرية جدلا واسعا في الدِّراسات النقدية المختلفة، ولاقت اهتماما كبيرا من قبل الدارسين، وهي من أهمّ المقاربات النقدية التي اهتمت بقراءة النصوص باختلاف أنواعها، وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بمختلف العناصر الفنية الإبداعية، التي من خلالها يتشكَّل النص الأدبي، ويبرز من خلالها المبدعُ مكونات هذا النص الذي يتخلله الغموض والإبهام، وحينئذ يستطيع الناقد أن يبرز هويَّة هذا النص ويستنطقه، ويبرز العناصر الجمالية فيه، فيتميز حينئذ النص بنوع من التَّفرد الأدبي. وقد بدأت ملامح الشعرية العربية تظهر مع جملة من النقاد القدامى الذين حاولوا التأسيس لهذا المصطلح النقدي الموسوم بالشعرية، فما هي أهم تجلّياتها؟

مفهوم الشعرية:

لقد أخذت الشعرية معان مختلفة من خلال فوض ى المفاهيم التي عرفتها، ممَّا يجعل كلّ مفهوم يختلف عن الآخر، وهذا راجع إلى تباين الرُّؤى حول هذا المصطلح المعروف بالزئبقية، فحاول كثير من النقاد تتبع ديناميَّة هذا المصطلح، وإبراز معانيه في حقل الدراسات النقدية. ومما الشك فيه أن هذا المصطلح ال يبوح بجميع أسراره ودلالة معانيه، ملا فيه من ضبابية تضطرنا إلى النّفاذ إلى أعماقه، ومحاولة استدراجه ومعرفة كنهه، وتتبع آثاره عبر كثير من الخطى التي تتشكل في قالب فنّي جميل متعدد الجوانب، رحب المجال واسع الآفاق، ولقد مرّت الشعرية العربية بمراحل متعدّدة.

إذا كان تطور الأدب وانتقاله من حال إلى حال ال تتم من خلاله سبيل الطفرة، إنما تتدخل في حركته تلك العوامل المختلفة ومما ال شك فيه أن للنقد إسهاما وافرا في نموه ودفعه نحو استكمال خصائصه الفنية؛ لأنّ تطور الأدب يخضع لعوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية وذلك أنّ الشعر الجاهلي في أهم مراحله ورحلته الطويلة

بين صورته الساذجة كما تصوّرها الدارسون من قدماء ومحدثين وبين صورته الناضجة كما تصوّرها والتي تجسدت " في المثل الشعري الأعلى الذي قدَّمَ نماذجه النابغة وامرؤ القيس وزهير والأعشى وغيرهم"[i]، وقد رافقت الشعر حركة نقدية؛ كانت تعمل طول هذه الرحلة تهذبه وتوجهه للبحث عن أسباب الكمال التي لا يتطلع إليها مبدع النص ومتذوقة على السواء، ومن هذا يمكن أن نقول: إنّ النقد الأدبي نشأ مع الشعر، وأنّه كان مثله ساذجا في بداية الأمر، وأنّ النصوص الأولى قليلة وصلت إلينا في مرحلة النضج الشعري، والتي ال تمثل صورته الأولى، "وإذا كان الناقد الأول قد ظهر إلى الوجود مع الشاعر الأول وإذا كانت أوّليّات الشعر العربي غير مألوفة لنا فإن أولويّات النقد الأدبي تبعا لذلك قد غابت عنا"[ii]، وعليه تبقى نظرتنا الأولى للنصوص قائمة على الظن والتخمين لذلك لا

بد من التطرّق إلى النقد الأدبي في العصر الجاهلي أي الفترة التي سبقت الإسلام حيث لم يصلنا من النصوص النقدية القديمة إلا القليل التي رافقت الشعر العربي في نشأته الأولى وفي تطوّره .

الأدب والنقد:

الأدب الجاهلي وما حوي من جواهر ثمينة في الشعر والنثر كان يستميل القلوب والأسماع، "فالناقد ينظر في الشعر من خلال الصورة الفنية أولا، وهذه قيمة جمالية يمكن لها أن تتطابق مع الصورة الواقعية، وبقد ما يحسن الشاعر من محاكاة الصورة النمطية بقدر ما يعتبر شعره فنيا راقيا ولذلك يمكن الحديث عن الصورة النمطية الأخرى التي استقرت في المخيال العام للناقد والشاعر"[iii]، فهذه الصورة النمطية يمكن اعتبارها أحد القياسات الهامة للتفاضل بين الشعراء.

يمكن أن نخلص إلى أنّ الموازنة مهمة في اختيار أجود النصوص بالإضافة إلى تفضيل بعضهما على البعض على المستويين الفردي والجماعي، والتي انتهت إلى تميّز مجموعة منها، لكن طبيعة موازنة هذه النصوص تتفق مع منحى أم جندب من حيث تطوّرا مذهلا في الغموض وعدم التحديد لسبقها لعملية الرصد والتكوين، وقد تطور الشعر في أواخر العصر الجاهلي حتّى أصبح فنّا يدرس ويتلقّى.

لقد كان النقد في العصر الجاهلي يهتم اهتماما كبيرا بالصياغة والمعاني مما يتماشى والفطرة العربية المرتبط ببداية نضج الشعر" والجديد بالذكر أن العهد كان قريبا من نضوج الشعر العربي.

الشعرية عند النقاد العرب القدامى:

لقد تعدّدت الآراء في رصد المفاهيم واختيار المعنى المناسب لكلمة الشعرية، وذلك لتشابك المعاني واختلاف الدلالات الخاصة بهذا المصطلح الذي يهدف إلى كشف هوية الجمالية فيه. النص الأدبي من خلال الوقوف عند القوانين التي تضبطه، وتحقّق العناصر لقد اختلفت الرؤى وتباينت الأفكار في الوقوف عند دلالة خاصة تليق بهذا

المصطلح نظرا لمعايير الزمن التي تحكمه انطلاقا من العصر الجاهلي وصولا إلى العصر الحديث وعند حديثنا عن هذا المصطلح في التراث النقدي العربي القديم يستوجب الوقوف عند أهم النقاد العرب الذين كان لهم الأثر البارز في التقعيد لهذا المصطلح.

الحواشي:

[i] – عيسى علي العاكوب، التفكير النقدي عند العرب– مدخل إلى نظرية الأدب العربي، دارالفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1987م، ص 20.

[ii] – –عبد القادر هني، دراسات في النقد الأدبي عند العرب من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط،، 1995م، ص417–418.

[iii] – بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 3، 1981، ص25–26.